من أوراق الرئيس(10)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

ودعوات اللّه ألا أسافر

إلى موسكو لأى سبب!

وكما حدث فى كل الاجتماعات السابقة فى الكرملين: وعود وعهود وورقة تخرج من تحت المائدة تعلن عن أسلحة غير مطلوبة.. ولكن الرئيس السادات فى هذه المرة أيقن أنه لا أمل. وكانت هذه نقطة تحول كبرى فى العلاقات بيننا وبينهم.. وضاعف الأمريكان معونتهم لإسرائيل. وصعدوا الحرب فى فيتنام. وظهرت لعبة "الوفاق" الدولى. وكان المطلوب من الرئيس السادات أن يساهم فى مسرحية "استعراض القوى" التى أعدها السوفيت ليبهروا بها الرئيس نيكسون.

ومن أجل مصر ذهب الرئيس السادات وهو على يقين من أنه لا جدوى لشئ يقوله أو يقال له هناك!.

ليس من السهل على نفسى، وما كان فى أى وقت، أن أقول إن سنة الحسم ذهبت بلا حسم.. وهى عبارة قصيرة تمر عليها العين فى ثانية، ولكن كم من الساعات وأنواع العذاب والهواء عصرت نفسى وطوتها على أشد أنواع المرارة التى عرفتها فى حياتى. ولو كان الأمر يخصنى وحدى لهان كل شئ. وقبل ذلك هانت على نفسى أشياء. ولكنها قضية شعب، ومستقبل أمة، وقدر منطقة. لقد ذهبت سنة الحسم.. وكان على أنا وحدى أن أواجه الشعب وأقول ما أقدر عليه..

وأشهد الله سبحانه وتعالى، أننى لم أكن وحدى فى هذه المحنة. فقد كان الشعب العريق معى وكانت مشاعره كلها تشد أزرى. فشعبنا قد أدرك بوجدانه الأصيل أننى كنت صادق العزم، وأن السوفيت هم الذين أخطأوا فهمى وفهم الشعب وأخطأوا فى

الحساب. أرادوا أن يكشفونى فانكشفوا، أرادو أن يغرقونى فى وعودى، فغرقوا هم بوعودهم. وثار الناس عليهم فى كل مكان فى مصر..

والذى يسترجع ما قيل فى الصحف وفى البيوت وفى المدارس وفى كل مكان.. يجد أن الناس قد صبوا الغضب كله على السوفيت.. ورغم ذلك وقفت أحييهم وأشيد بصداقتهم. وأذكر لهم مساعدتهم لمصر فى أشد الأزمات. والله يعلم أننى كنت صادقا فيما أقول.

ذهبت سنة الحسم. وكان المفروض أن تذهب بى. ولكن إرادة الله ومساندة الشعب، قد فوتت على السوفيت هذه الكارثة المحققة.

ودافعت عنهم.

فقد كنت حريصا على أن تكون سنة الحسم، هى "السنة" وأن يكون نضالنا حاسما لقضية مصيرية.. هذه القضية أخشى عليها أن تتجمد وأن يصبح جمودها أمرا واقعاً وأن تكون خطوط القتال خطوطا طبيعية. لقد حدث ذلك. وأنا لا أتحدث من فراغ، وإنما أتحدث من التاريخ الحديث الذى يعرفه أى طالب صغير يدرس تاريخ أوروبا وحروبها المتكررة.

فأمريكا وإسرائيل كلتاهما تريد أن يصبح ما نحن عليه – وما أسوأ ما نحن عليه – أمرا واقعا فتحتل إسرائيل الضفة الشرقية للقناة والأرض العربية الأخرى. وبعد عشرين عاما أو خمسة وعشرين عاما يتكرر ما وقع فى أوروبا.. كما حدث فى الاتفاقيات المشهورة على خط نهرى ألاودر – نيس.. وكذلك اتفاقية برلين وتقسيمها إلى مدينتين واحدة فى ألمانيا الغربية والأخرى فى ألمانيا الشرقية.

وآخر تصريح لموسى ديان فى ذلك الوقت كان يوضح هذا المعنى تماما. فقد قال إن إسرائيل فى حاجة إلى عشر سنوات أو خمس عشرة سنة لكى تجد حلا لهذه القضية. والحل الذى ينتظره هو أن يضع العالم كله أمام الأمر الواقع. والأمر الواقع هو

أن يبق اليهود على أرضنا كما هم، ونظل نحن نحترق فى عجز ويأس كما نحن.. وإذا ظللنا كذلك فهو أقصى العقوبة التى نستحقها.. فهل نستحق نحن هذه العقوبة.

نحن نستحق هذه العقوبة وزيادة إذا ارتضينا الهوان، وإذا قبلنا الجمود، وإذا نظرنا إلى الضفة الشرقية من القناة ولم تغل الدماء فى عروقنا.. إن لنا مئات الألوف من الجنود يعيشون تحت نار الشمس وفوق التراب وأيديهم على السلاح ينتظرون لحظة الانتقام للكرامة وللأرض وللعرض. ما فى ذلك شك. وقد حددنا لهم سنة الحسم.. ولم يبق أمامهم إلا أن يضغطوا بأيديهم على الزناد فتنطلق نيران التحرير. وانتهت السنة، وكأن الجليد الذى سقط على أوروبا كلها قد نزل على خطوط النار المصرية.. فأطفأ نيران السلاح ولكنه أوقد الدماء فى العروق. ومزق القلوب.

وكان على أنا وحدى أن أواجه الملايين، وأن أشيد بالصداقة المصرية السوفيتية وأن أؤكد أنها قاعدة استراتيجية لا يمكن أن ننسى فضلها ولا أن نستغنى عنها. أقول ذلك اليوم، وقلته أمام مجلس الأمة، وفى نفسى ما فيها.. ولكن الذى فى نفسى.. أنحيه جانبا.. فعندما أواجه الشعب يجب أن أعطيه الأمل والأمان.. فإذا الشعب فقد الأمل غربت الشمس من سمائه، وإذا لم أعطه الأمان اختفت الأبواب والنوافذ من بيوته وأصبح الناس جميعا بعضهم عدو لبعض.. فبدلا من أن نوجه العداوة للأعداء فإننا نستبقيها للأهل والأصدقاء. وهذا ما لن يكون. وما لم يكن. قد كان شعبنا عظيما. ولا يزال. وقد عرف الحقيقة بإحساسه العميق الصادق.

ومع أوائل سنة 1972 اشتد الهجوم العنيف على السوفيت. فهم الذين تخلوا عنا. لأنهم أرادوا أن يؤكدوا لى وللعالم: أننى لا أستطيع أن أتخذ قرارا. فالقرار قرارهم. والرأى رأيهم. تماما كما عرضوا علينا من قبل أن نستخدم طائرات تتلقى أوامرها من موسكو. ومعنى ذلك – تأديبا لى وتحذيرا جديدا – أنه بعد الآن يجب ألا أعلن قرارا قبل أن أخذ موافقتهم على ذلك. فسنة الحسم هذه ما كان يجب أن أعلنها، قبل أن أخطرهم بذلك. وإذا أخطرتهم قامت لجانهم وهيئاتهم تدرس الموضوع سنة بعد

سنة.. حتى تصل إلى قرارا. ويجئ القرار بعد سنة أو بعد عشرين سنة. هذه هى الأصول التى يريدون منى أن أتبعها وألا أخرج عنها!!.

واستشعر الناس فى مصر إهانة بالغة. وفوجئت فى ذلك الوقت بعريضة موقعة من عدد من السياسيين كان من بينهم د. مصطفى خليل الأمين الأول للاتحاد الاشتراكى.. وفى هذه العريضة تحدثوا عن أن مصر تمر بمحنة فظيعة. وأن هذه المحنة تهدد مصر شعبا وأرضا وحضارة. وأن الاتحاد السوفيتى يقدم لمصر العون الذى لا يسمح بتحرير الأرض واسترداد الحق. وقالت العريضة إنه آن الأوان لأن ترسم مصر سياسة التحرير الوطنى. على أساس أن قوى مصر الذاتية وحدها، روحية ومادية، هى الركيزة الأولى والأمنية الوحيدة لتلك السياسة.. وأنه آن الأوان لمراجعة الإسراف فى الاعتماد على الاتحاد السوفيتى.. لأن الاعتماد على السوفيت كل هذه السنوات، لم يحقق تحرير الأرض وردع العدو..

ورغم كل ما أعرفه عن مشاعر الناس، فأنا واحد من أبناء الشارع وأنا فلاح أدرك تماما مدى عمق هذه الجراح، فقد دافعت عن السوفيت وعن الصداقة بيننا. وذكرت لهم فضلهم.. بل إننى ذهبت إلى القول أمام مجلس الأمة أهدد: هذا موقفى. والذى لا يريد أن يتعاون معى فليقدم استقالته أمام المجلس.

إلى هذه الدرجة كنت أغطى موقف السوفيت، الذين أرادوا تعريتى أمام الشعب وأمام الأمة العربية.

وأخيرا سافرت إلى موسكو يوم أول فبراير.

وتكرر المنظر: جلسنا الى المائدة الكبيرة. كان برجنيف وكوسيجين.. ولم يظهر بودجورنى لأننى لا أحب أن أرى هذا الرجل الذى شتم الجيش المصرى أمامى واشتبكت معه.. وكان من الطبيعى ألا يعود الى مثل هذه الجلسة تفاديا للاحتكاك وبعد الكلمات التقليدية والحفاوة من جانبهم ومن جانبى.. دخلنا فى الموضوع. فهناك موضوع.. ولابد أنهم يعرفون أن فى قلبى الكثير. وكنت أنا أول المتكلمين.

وسألت بوضوح: من الذى أمر بمنع وصول الأسلحة إلينا، مخالفا بذلك ما سبق أن اتفقنا عليه فى اجتماع 11 و12 أكتوبر سنة 1971، أظن أن من حقى أن أعرف ذلك. وانطلاقا من الوضوح الذى أنشده والمصارحة التى جعلناها أسلوبا فى الحديث بيننا. وبمنتهى الإخلاص أريد أن أعرف ذلك الآن.

ونظرت الى بريجنيف وكوسيجين. وانتظرت لحظة. وجاء الرد من برجنيف فقال: أنا الذى قررت ذلك!

سألته: لماذا!

أجاب: إنه الروتين عندنا. وأنت تعرف أننا نشكو من هذا الروتين. وأن الطريق أمامنا طويل لكى نتخلص منه. فقد كان فى نيتنا أن نبعث لك بالأسلحة لولا هذه العقبات التقليدية عندنا.

فقلت له: أنت طبعا قررت هذا. لأنك تعلم عن يقين، أننى لا أستطيع أن أرد عليك. فأنا أصدقك. وأنا أعتبرك صديقا قادرا على التفاهم والإقناع. وأنا مؤمن أنك معنا بقلبك.

والحقيقة أن برجنيف هذا.. رجل سياسى ممتاز. وأنه قادر على الفهم والتفاهم. وأنه معنا بمشاعره حقيقة. وأنا صادق فيما أقول . وقد قلت هذا المعنى كثيرا فى موسكو وفى القاهرة ولعدد كبير من الساسة فى الشرق والغرب.

ثم أعطيت الكلمة لكوسيجين رئيس الوزراء. فقال: يا رئيس سادات أريد أن أؤكد هذه المرة.. أريد أن أؤكد لك أنه من الآن فصاعدا باعتبارى رئيسا لوزراء الاتحاد السوفيتى سأكون أنا المسئول عن إرسال كل صفقات السلاح فى الوقت المتفق عليه وبالأسلوب المتفق عليه. لعلك ترضى وتهدأ وتهنأ. ولن يتكرر ما حدث قبل ذلك. ونحن شديدوا الأسف لكل ما وقع منا قبل ذلك. فهل يرضيك الآن ما أقول؟

ولو كانت مثل هذه العبارات قد سمعتها مرة واحدة أو حتى عشرين مرة، لهان الأمر.. ولكن هذه المعانى سمعتها حتى سئمتها. وتطلعت إلى وجه كوسيجين ومنعت نفسى من أن أستعرض تاريخه العجيب فى الحكم.. والذى أعرفه جيدا..

ثم توجهت إلى برجنيف وقلت له: إن العواقب أسوأ مما تتصورون. إن إضاعة سنة الحسم قد أصابتنى فى أعماقى. وأوجعت شعبى.. ولكن أحب أن أؤكد لك أن نتائج أخرى أسوأ من ذلك سوف تصيب السوفيت فى المنطقة. إذا كنتم لا تدركون ذلك فأنا هنا أؤكد لكم هذه الحقيقة. إننى أتحدث إليكم كصديق. وقد أكدت هذه الصداقة. وفى كل مناسبة أجدد ذلك. حتى مل الناس ومللت أنا أيضا.. إن موقفكم هذا سوف يسئ إليكم إساءة بالغة خذوها منى!.

والسوفيت حريصون على جميع قواعد الإخراج المسرحى، فكل شئ تقليدى لا يتغير.. فالاجتماع يبدأ فى هدوء. أنا فى ناحية وهم فى الناحية الأخرى. ونتبادل كلمات التحية التى ظاهرها الحرارة وباطنها الغليان من جانبى وبرودة الجليد من جانبهم. ويبدأ أحدنا فى الكلام. ويرد عليه الآخر. ويحتدم النقاش. ويتطوع واحد منهم بمضايقتى وإهانة الجيش المصرى أو الشعب المصرى أو إهانتى شخصيا. ويتقدم بريجنيف – وهو الذى يفعل ذلك دائما – بتهدئتى. وبالاعتذار عن الذى حدث فى هذه الجلسة وفى الجلسات السابقة. وبدلا من أن يسدل السوفيت الستار فإن واحدا منهم يخرج من جيبه ورقة فيها قائمة بأسلحة لم أطلبها. ولا أريدها. وفى نفس الوقت لا ارفضها، لأنها إضافة إلى ما عندى من سلاح.

كل شئ بهذا الترتيب الجامد القاطع.. القاطع للأنفاس ولكل خيوط الأمل فى أن يحدث شئ جديد لصالحنا أو حتى لصالحهم هم..

ولكن فى هذا الاجتماع حدث شئ من التغيير البسيط الذى جعل الاجتماع منعشا إلى حد ما.. كأن بابا قد انفتح فجأة ودخل هواء ساخن، أحدث تغييرا فى جو الغرفة..

هذا الهواء الساخن هب من ناحية جريتشكو وزير الحربية فى ذلك الوقت. وهو صديق. وأنا أحبه حقا وأكن له كل الاحترام، الله يرحمه. فقد تدخل فى المناقشة. وثرت عليه قائلا: لو كنت وزيرا للحربية عندى لعزلتك فورا.

فنحن نعرف أن أى وزير فى روسيا لا رأى له، وأن وزير الحربية والجيش جميعا على الهامش. والرأى أولا وأخيرا للحزب. وعلى الرغم من ذلك فقد حاول جريتشكو أن يقول كلاما ليس من شأنه. أو إذا قاله فلن يكون مسئولا عنه.. وإنما هو كلام من باب إثبات أنه موجود والسلام.

وقلت له: ماذا كان يحدث لك لو أن طائرات معادية قد هاجمت لك مصنعا مثل مصنع "ابو زعبل" وقتلت مئات العمال، أو هدمت لك مدرسة أطفال مثل مدرسة بحر البقر؟ ما الذى كنت تفعله؟ وما الذى كان يكفيك لكى تشرب من دم عدوك؟

وتدخل بريجنيف لفض هذا النقاش الحاد. وأنا أرتاح لهذا الرجل بريجنيف، ويعجبنى فيه أن الرجل السياسى القادر على الفهم السريع والاستيعاب.

وانفض الاجتماع الذى أكدت فيه، كما حدث فى كل مرة، أننى لا أريد جنديا روسيا واحدا يحارب من أجلنا.. ولا أريد مواجهة بين السوفيت والأمريكان فى المنطقة، وأن تكون مصر هى السبب..

.. وخرجت الورقة من جيب بريجنيف وتقول بالحرف الواحد: وافق المكتب السياسى والحكومة السوفيتية على تزويدكم بالآتى:..

وتسمع بريجنيف وهو يقرأ هذه القائمة وكأنه شاعر يتغنى بجمال الطبيعة.. مع أن كل هذه القائمة لا تحتوى على شئ واحد، أقولها مرة أخرى.. لا تحتوى على شئ واحد طلبته أو أشرت إليه.. أو نحتاج إليه!.

إنها ولا شك مقدرة طبيعية عجيبة.. أن يقول الإنسان الشئ الواحد ألف مرة دون أن يستشعر الملل أو القرف، ولابد أن يكون المطلوب طبعا هو أن يصيبنى الملل والقرف واليأس فأقول بأعلى صوتى: لا. . لا اريد شيئا من هذه الأسلحة التقليدية.

ولكنى لا أفعل، وكما هى عادتى فإننى أبتلع غضبى ومعه كرامتى وأقول لنفسى: إن هذه الأسلحة مهما كانت قيمتها المتواضعة جدا، فهى إضافة إلى قوة مصر..

ثم إن الطريقة التى يلقى بها بريجنيف هذه القائمة والمقدمة والخاتمة تضعنى فى موقف صعب جدا هذه الصعوبة تحتم أن أقبلها.. وإلا..

وإلا اضطر بريجنيف إلى دعوة المكتب السياسى واللجنة المركزية لمناقشة الرفض ، أو لمناقشة إضافة وحذف أسلحة أخرى.. ومعنى ذلك ألا أخذ هذه الأسلحة. فلا أملك إلا أن أقول: موافق. حاضر موافق.ولكم الشكر على ما قدتم وتقدمون أو سوف تقدمون لنا من أسلحة!

وللتاريخ وللذين يدرسون تاريخ العلاقات السوفيتية المصرية التى أرويها من تجربتى الشخصية أو من تجربتى كشخص وكرئيس لمصر، أقول: إننى شعرت بالتشاؤم لأول مرة. فهذه هى المرة الأولى التى عرفت فيها اليأس. وعذرى معى, وهو عذر واضح. فالذى رأيته وسمعته هذه المرة. قد رأيته وسمعته قبل ذلك.. وهذه هى المرة الثالثة. فما معنى ذلك؟

لا معنى عندى إلا أنهم يستخفون بى. يلعبون بى وبقدرى وبمصر. فلا الاتحاد السوفيتى كبير جدا، ولا أنا صغير جدا. ولا التحاد السوفيتى صادق إذا تصور أنه وحده القادر على الفهم وعلى تسيير الأمور.. فنحن أيضا قادرون على الفهم، وعلى معرفة ما ينفعنا وما يضرنا. ثم إنها قضيتنا فى الدرجة الأولى. وعلينا أن نحسم ما نراه، وأن نتحمل النتائج. ونحن قادرون وعلى استعداد تام لكل شئ من أجل مصر.. إن السوفيت حاربوا واستماتوا من أجل أرضهم، فكيف يتصورون أننا لن نفعل ذلك..

وعندما أستعيد هذه الجلسة التى كانت نقطة تحول حقيقية فى العلاقات بيننا، أجد أن كوسيجين هو الذى تعهد هذه المرة بكل شئ. وكوسيجين هذا رجل سياسى عتيد.. إنه آخر رجال الحرس القديم.. إنه آخر الذين شاركوا فى قيام الثورة السوفيتية. وهذا الرجل الكبير القدير فى الحزب وفى الاتحاد السوفيتى لابد أنه يعنى ما يقول. فهذا

الرجل قد عمل وزيرا فى عهد ستالين ثلاثة عشر عاما. وكان ذلك مستحيلا أيام ستالين الجبار. فقد كان الوزير إذا طالت مدة خدمته، فإنه يبق عاما أو عامين. ولكنه استطاع أن يصمد هذه الفترة الطويلة، التى تعتبر رقما قياسيا. وكان ستالين طاغية من الطراز الأول، باعترافهم وشهادتهم، ويكفى ما قاله خروتشيف نفسه عن ستالين فى بيان المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى. لقد سمعت من خروتشيف هذا سنة 1964 فى حديث شخصى وكنا ثلاثة: جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأنا: إن ستالين أيام الحرب كان يستدعيهم فى الساعة الحادية عشرة من مساء كل يوم. وكان كل واحد منهم يودع زوجته وأولاده. لأنهم يعرفون مقدما أن هناك نهايتين تنتظرهما: إما الإعدام رميا بالرصاص لأى سبب، وإما النفى إلى مجاهل سيبيريا. وكان يتولى تنفيذ ذلك وزير داخلية رهيب.. اسمه بيريا.

هذا ما سمعته من خروتشيف وقد طلب إلينا ألا ننشر ذلك. ثم إنه فى بيانه فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى قد أعلن أن ستالين كان يطلب إليهم أن يرقصوا أمامه. وكان يتسلى بهم ويضحك.. وبعد أن يضحك عليهم وهم يتساقطون من الشرب ومن الإعياء يجئ النوم فيداعب جفنيه وينام.. كل ليلة!

وهذا يذكرنى بما كان يفعله الإمبراطور الرومانى كاليجولا فقد كان يجمع الشعراء والفنانين ويطلب إليهم أن يرقصوا على ساق واحدة.. ثم أن يلقوا بأنفسهم من النوافذ.. وكان يسعده أن يتحول الشعراء إلى بهلوانات ثم الى موتى.. فإذا فعلوا ذلك، جاءه النوم ليريح بدنه وأعصابه التى تعبت من رؤية الشعراء والفنانين وهم يمتهنون أنفسهم أمامه!!.

واستطاع كوسيجين أن يعيش مع ستالين وأن يتآمر عليه.. وأن يعيش مع خروتشيف وأن يتآمر عليه.. وأن يعيش مع بريجنيف الآن.. ثم هو الذى يعدنى بأن يفى لى بل ما تعهد به فى هذا الاجتماع. فماذا أقول؟ هل يصدق هذه المرة؟ هل هو طراز مختلف؟ هل يستطيع أن يفعل بمفرده شيئا لم يقرره المكتب السياسى واللجنة المركزية؟ ولماذا لم يتعهد بريجنيف إذا كانوا صادقين هذه المرة؟ ثم ما الذى جرى فى الدنيا

ليجعلهم صادقين هذه المرة؟ ما هى المعلومات التى تلقوها عن مصر أو عن العالم العربى تدفعهم إلى تغيير موقفهم؟ ثم أليسوا هم الذين يؤكدون دائما أنه لا حرب؟.. وأن الحل السلمى هو الحل؟ ولكن كيف يكون سلام دون استعداد للقتال؟ كيف؟ هل أنا أقنعتهم بشئ هذه المرة؟

عدت إلى مصر هذه المرة: جيبى خال، ولكن قلبى ملآن. قلبى ثقيل. يكاد يهبط فى قدمى. وأحسست تماما أننى كرة يلعبون بها.. أرادوا أن يجعلونى كرة يلعبون بها. ولكنى أرفض ذلك. رفضته وسوف أرفضه. ويرفضه شعبى من ورائى ومن أمامى ومن حولى.

وأنا معذور إذا استعرضت صور الماضى كلها وانتهيت إلى حقيقة واحدة: أنهم يراوغوننى. فعلوا ذلك مع جمال عبد الناصر حتى قضوا عليه. حتى قتلوه . ويحاولونه معى.. فإذا كان هناك جليد فهم لا يذيبونه وإنما هم يضاعفونه ويكدسونه.

وعدت إلى مصر وأنا لا اقوى على أن أحمل قلبى بين جوانبى.. وكل ما معى هو وعد ببعض الصواريخ القديمة.

وتلاحقت الأيام. مضى فبراير كله. ومن بعده مارس وأبريل..

وفجأة ظهر واد ساحر على مسرح السياسة الدولية. الساحر فى يده عصا وعلى رأسه قبعة. وعرض القبعة على الناس. وتأكدوا أنها خالية تماما. ضرب القبعة بالعصا. وخرج الأرنب. هذا الأرنب اسمه "الوفاق" بين روسيا وأمريكا. وهذا الحاوى الجديد اسمه: هنرى كيسنجر!

مفاجأة. الأمريكان يريدون وفاقا مع الروس. يريدون ذوبان الجليد بينهما. واستئناف الملاحة والتجارة والصداقة. والأحضان والقبلات. عال جدا. وأن اللقاء الموعود سوف يتم يوم 20 مايو فى موسكو. وأن الرئيس نيكسون هو الذى سوف يبدأ بتذويب الجليد، أو بتكسيره أو إزالته من الطريق الشائك الملئ بالألغام بين واشنطون وموسكو. شئ عجيب. ولكن ما هو المعنى الذى استخلصه أنا من هذا الاتجاه الجديد أو

الموجة الجديدة أو هذا السحر العظيم؟ لابد أن أجد لى تفسيرا. ولابد أن أعرف أين أنا وأين شعبى من هذه اللعبة الجديدة؟

أعود إلى أول يناير سنة 1972، ماذا جرى؟

أعلن مستر روجرز وزير خارجية أمريكا أنه سوف يمد إسرائيل بمزيد من الفانتوم. أى أنه يريد أن يحدث خللا فى ميزان القوى، وأن يكون ذلك لصالح إسرائيل. هذا المستر روجرز قد هاجمته بعنف السيدة جولدا مائير. ومسحت به الأرض، ولم يجرؤ أن يرد عليها بكلمة واحدة. إنما كان رده يشبه الاعتذار العظيم لها: المزيد من طائرات الفانتوم.

ولكن المشكلة أكبر من ذلك: فأمريكا قد خسرت معركتها بين الهند وباكستان. ثم إنها حاولت أن تقوم بتعويض لهذه الهزيمة فراحت تصعد المعارك فى فيتنام.. تصعد الموقف فى الشرق الأوسط وتتحدى وتقول لنا وللسوفيت إنها هى الدولة التى فى يدها كل شئ فى الشرق الأوسط والشرق الأقصى.

فهل مستر روجرز هذا يريد أن يمشى على سياسة سلفه مستر دالاس بأن يدفعنا إلى حافة الحرب أو حافة الهاوية؟ أنا لا أعتقد أنه قد أحسن فهم الموقف. ويكفى أن يستعيد بذاكرته ما الذى فعله دالاس، ثم ماذا كانت النتيجة؟ لم تنفع سياسة دالاس ولم تأت بالنتيجة المرجوة. بل كانت النتائج عكسية تماما. ونحن لم نخف من دالاس، ولكن نخاف من روجرز.. ثم إننا قد انتصرنا فى كل معاركنا ضد الأمريكان فى المنطقة. وسوف ننتصر.

أكثر من ذلك .. فقد أعلن روجرز أن الولايات المتحدة سوف تزود إسرائيل بمصانع لإنتاج الأسلحة. هذا ما تفعله الولايات المتحدة لإسرائيل. فما الذى يفعله الاتحاد السوفيتى لمصر. لقد تعبت مع الروس من تكرار عبارة واحدة: يا ناس لا أريد أن أصل فى التسليح إلى مستوى اليهود.. اجعلونى وراءهم بدرجتين. وليس بعشرين درجة. إنهم هم المحتلون لأرضنا. ونحن نريد تحرير أرضنا. فكيف يكون ذلك ونحن، بفضلكم،

على هذه الصورة من التخلف؟ قلتها مئات المرات. ولا حياة لمن تنادى. أنا الذى أقول وأنا الذى أسمع. أما هم، فكما ذكرت أكثر من مرة: لا أحد يسمع. وإذا سمع فإنه لا يهتز. وإذا اهتز فلكى يخرج ورقة تقول: قرر المكتب السياسى...

أى قرر المكتب السياسى تزويدنا بكل الذى لا نحتاج إليه من السلاح؟!

إنها – إذن – حرب أعصاب تشنها الولايات المتحدة. هذه الحرب قد تردد صداها عند فلاسفة بيروت. فامتلأت الصحف بالاجتهادات والتخمينات. وتحول الكتاب هناك إلى أناس يفتحون الكوتشينه ويقرأون الفنجان ويقولون.. وكل واحد أصبح ماريشالا فى العسكرية وقطبا فى السياسة.. وأصبحت الكرة الأرضية كلها حبة فى مسبحة طويلة تلعب بها أصابع الصحفيين والسياسيين. لقد انتهت الدنيا. والعالم كله سوف يخرب. وأمريكا تقف وراء إسرائيل. ومصر ليس وراءها أحد. كأن الملايين من شعبنا ألواح خشبية ليست لها قوة ولا تاريخ طويل عريض عميق . إنهم فى بيروت يقررون ويحتكرون التفكير. ونحن هنا لا نقرر ولا نفكر. وإنما نائمون فى الهزيمة غارقون فى اليأس. ونحن راضون بذلك. وراضون بما هو أسوأ من ذلك : أن نتلقى تفسير أحلامنا من بيروت!!.

إن مصر لم تهن إلى هذه الدرجة. وإن أحدا لم يتعاظم فى أى مكان فى العالم العربى إلى هذه الدرجة. فالمعركة هى معركتنا. لا شك فى ذلك، ونحن الذين سوف نحارب. لا جدال فى ذلك. واستعدادنا للتضحية إلى غير حد. وهذه حقيقة.

وانتقلت عدوى الفلسفات البيروتية إلى بعض المثقفين فى القاهرة. واهتزوا وارتعدوا.

وتسلل إلى الخائفين معنى غريب: إذا كانت أمريكا وروسيا تتفقان، فلماذا لا نتفق نحن أيضا؟ أى لماذا لا نفعل ما فعله الألمان شرقا والألمان غربا؟ لماذا لا نتفق مع اليهود وينتهى كل شئ بلا حرب.. إن أمريكا تتفق مع روسيا، وأمريكا اتفقت مع الصين؟ وهذه أكبر وأعظم الأمثلة فى التاريخ؟

ونسى هؤلاء المرجفون المرتجفون أن هذا هو المطلوب. وأن هذه هى سياسة إسرائيل منذ المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى سويسرا سنة 1897 والذى قرر أن تكون دولة إسرائيل الكبرى ممتدة من النيل إلى الفرات.. أى ليس الوقوف فقط عند قناة السويس وإنما الاستيلاء على كل شرق الدلتا. قد خرج اليهود من الزقازيق. أى ابتداء من فرع دمياط.. فهذه المنطقة تسميها التوراة أرض جاشن. والخرائط التى يحملها الطيارون اليهود الذين سقطوا فى أيدينا كانت مكتوبة باللغة العبرية.. ومكتوبا عليها أن كل الأرض شرقى الدلتا هى أرض جاشن. بل مصر كلها هى أرض جاشن..

ولكن لم يتسلل هذا الفزع إلى القاعدة العريضة من الشعب.. إلى التسعين فى المائة الذين وقفوا ورائى صفا واحدا. يريدون شيئا واحدا: تحرير الأرض..

ومضى أكثر شهر أبريل. وفجأة جاءنى السفير السوفيتى يقول لى: القادة السوفيت.

قلت: خير؟

قال: يريدون رؤيتك يوم 28 أبريل..

قلت: لماذا؟

قال: زيارة قصيرة جدا.

قلت: قصيرة جدا؟ ماذا تقصد؟

قال: 24 ساعة فقط..

قلت: أزورهم 24 ساعة.. يا سلام.. ما هذه الزيارة؟

وما الذى سيتم فيها بهذه السرعة ؟ كان فى استطاعتهم أن يبعثوا إلى رسالة.. وتقوم هذه الرسالة مقاوم الزيارة.. أو أبعث إليهم أنا رسالة تستغرق قراءتها خمس دقائق. وتكون بمثابة زيارة قصيرة جدا جدا. ما رأيك؟

قال: إن الموقف جاد.

قلت: وأنا جاد. ولم أكن قط معكم إلا جادا جدا.

قال: أرجوك. فى عرضك. فى طولك 24 ساعة تكفى.

قلت: أنا الذى أرجوك وأنا الذى أقول لهم وأقول لك: فى عرضك.. فى طولك.. أنا قرفت. أنا زهقت. أنا ضقت بكل هذه الزيارات. وليس هناك أى أمل فى أن يحدث أى شئ جديد. أنا عارف.. وأنت عارف وهم عارفون. والعالم كله الآن يعرف ما الذى تفعلونه بمصر. وما الذى يفعله الأمريكان لليهود.. أرجوك أن تبلغهم أننى لا أريد هذه الزيارة . أرجوك.

وكانت الزيارات الثلاث الماضية بناء على طلبى. أما هذه الزيارة فقد كانت بطلب من القادة السوفيت.

ودارت كل الأحداث والأحاديث فى رأسى.. ماذا يا ترى يعده السوفيت؟ ما هو هذا الشئ العاجل جدا الذى يمكن أن يتم فى 24 ساعة؟ ما هذا التغيير المفاجئ الذى طرأ على أدمغتهم هناك؟ ما الذى يدبره المكتب السياسى واللجنة المركزية للحزب؟ هل استطاع هذا السياسى العنيد كوسيجين أن يقنعهم بشئ جديد؟

إن رأسى يحسب ألف حساب لكل شئ.. ووجدتنى قد وصلت إلى شئ بسيط ومهم جدا هو أن نيكسون سوف يزورهم يوم 20 مايو. وهو فى حاجة إلى استعراض قوتهم فى الشرق الأوسط. وأين؟ فى مصر.. ذات المركز الرفيع فى الشرق الأوسط وفى العالم العربى وفى أفريقيا.

ومن مظاهر قوتهم وحضورهم فى مصر أنهم استطاعوا أن يفوتوا سنة الحسم.. نحن قلنا إنها سنة الحسم. وهم الذين قالوا إنها فعلا سنة الحسم ولكن بين الهند وباكستان. وليست سنة الحسم بين مصر وإسرائيل. فهم الذين يقررون ويقدرون ويدبرون ويفكرون ويستدعون رئيس دولة مصر الذى أحرجوه أمام الملايين.. ورغم هذا الإحراج الرهيب فقد جاءهم فى موسكو لاجتماع عاجل قبل زيارة نيسكون. وطبعا

لن يعرف أحد ما الذى قالوه لرئيس مصر. ولكن يكفى أنهم قالوا له: تعال فقال: حاضر.

هذه الصورة المروعة – إذن – هى المطلوبة أمام الأمريكان. لكى تكون دليلا على قوة السوفيت وحضورهم فى المنطقة. وسوف تكون هذه نقطة تضاف إلى حسابهم على مائدة "الوفاق" التى أعدها الساحر الجديد: هنرى كيسنجر..

يعنى المطلوب منى أن أقوم بدور فى مسرحية "أعظم استعراض فى العالم" التى يعدها السوفيت قبل زيارة نيكسون.. ولم أكن فى حاجة إلى مجهود عقلى كبير لكى أدرك هذه الحقيقة.

إذن هذه الزيارة تافهة الشكل والمضمون من وجهة نظرى. ولكنها من وجهة نظر السوفيت جزء من اللعبة التى يريدون أن يبهروا بها الأمريكان.

وكنت قد دعوت الله مخلصا وصادقا من كل قلبى: اللهم لا تضطرنى إلى زيارة موسكو هذه. اللهم لاتجعلنى أرى هؤلاء الناس. فقد تعبت. وتحملت مالا يتحمله البشر. اللهم رحمتك.

وأفقت من حيرتى والسفير السوفيتى جالس أمامى. ووجدت أننى قد انقسمت على نفسى بين: المصرى الفلاح المقاتل.. ورئيس الدولة.

فباسم المصرى الفلاح قلت: لن أذهب، أما باسم رئيس الدولة فقلت له: نعم. أذهب إلى موسكو. وأقابل القادة السوفيت. ولمدة 24 ساعة. وأقل من ذلك إذا أرادوا!.